الإقرار بالتوحيد والنبوة والآخرة منتهى العدالة من منظور " رسائل النور "

د. عبد اللطيف مومن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي – الإمارات العربية المتحدة

ليس يخفى على أي متتبع لِسير الأعلام العِظام أن الإنسانية قلما تهبنا رجالاً أفذاذًا يسمون تاريخها بمياسم التجديد والإصلاح، أو العبقرية والنبوغ، أو الذكاء والتميّز، لأنهم خُلقوا لأجل ترسيخ رسالات عميقة، أو مُثل عقلية وقِيم روحية تسعى إلى استكمال بنائها – أي الإنسانية – وجعلها تستجيب لأوامر إلهنا ونواهيه التي أبدع هذا الكون من أجهلها، وصاغهُ صياغة محكمة دقيقة مصداقًا لقوله عز من قائل: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} (القمر: ٤٩). ومن المعهود أن هؤلاء الأعلام أسدوا للبشرية أيادي غراء على صعيد الدين أو الفكر أو الحضارة عامة. وكانوا وهم يطمحون إلى تحقيق غاياتهم السامية تلك واعين – أو غير واعين – بأن عطاءهم ذلك إنما أتى مستجيبًا للحكمة الربانية المتمثلة في قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ } (الذاريات: ٥٦).

بيد أن زعماء السياسة والحروب والفتن كانوا – غالب الأحيان – يستغلون هذا العطاء استغلالاً بشعًا، ويسعون في الأرض فسادًا بعد إصلاحها من خالق هذه الأكوان.

ولعل أي أمة لم يقدر لها أن تنجب مصلحين مجدّدين، وهداة مهتدين، ومفكرين موهوبين مثل الأمة الإسلامية التي كانت خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف

وتنهى عن المنكر. وبداهة فإن الحكمة الربانية من ذلك تكمن في كونها أمة وسطًا أنشأها صاحب النشأة الأولى لتقود ركب الإنسانية منذ بزوغ البعثة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وإذا كانت سماؤها الحالية مدلهمة بالغيوم السود، متجهمة كل التجهم فإن عهد الصحو والصفاء لا بد آت تحقيقًا لوعده تعالى: { وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور: ٥٥). ومعنى هذا أن أتباع بني شريعتنا السمحاء قد حُمّلوا أمانة عظمى وحِملا عظيما عليهم أن يصطبروا لهما، وأن يحتسبوهما عند الله تعالى مضحين في سبيلهما بالمُهَج والنفيس، تمامًا كما كان السلف الصالح رضوان الله عليهم واعين كل الوعي بهما، وبما ينطويان عليه من مُثل سامية وقيم رفيعة.

إننا ونحن في مجال تدبّر هذه الدلالات العميقة والرموز الموحية نستحضر حديث المصطفى الأمين عليه أفضل الصلوات والتسليم: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها)[١]. ذلك أن المتأمل في تاريخ الإسلام والمسلمين يرى أن هذه الأمة قد أنجبت مصلحين مجدّدين تحقيقًا لقوله ρ. حيث اقتضت حكمته تعالى أن يبعث في هذه الأمة بين كل عصر وعصر من يتحمل هذا الأمر العظيم كلما زاغت الأبصار والبصائر، فيسعى إلى تقويم المنآد، وجلاء ما علق بالحقائق الدينية من صدأ، أو ماران على القلوب من عمى وجهالة.

ولعل خامس الخلفاء الراشدين: عمر بن عبد العزيز أول مجدّد في الإسلام بما فتح الله عليه من فتح مُبين في قضايا تنظيمية وسياسية خاصة، ثم تعاقب بعده جِلّه من المفكرين أو العلماء والمجددين، نخص بالذكر منهم الإمام الشافعي والقاضي أبا بكر الباقلاني وحجة الإسلام أبا حامد الغزالي ومحيي الدين بن عربي وشيخ الإسلام ابن تيمية وجلال الدين السيوطي[٢].

وإذا كان التجديد لدى هؤلاء قد متح منة معين القرآن والسنة السماويين، وخاض في قضايا فقهية وفكرية وكلامية فإن التجديد لدى العالم المفكر الألمعي بديع الزمان

---

(١) رواه أبو داوود في سننه رقم ٤٢٧٠ والحاكم في مستدركه (في الفتن) ٥٢٢/٤ والبيهقي في معرفة السنة والآثار، ص٥٢.

(٢) يُراجع في هذا الشأن كتاب " علماء التجديد في الإسلام حتى القرن الحادي عشر للهجرة " للدكتور جمال حمدان، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٩.

سعيد النورسي قد غرف من نهر الدين الخالد وتنفس معه هواء الغرب المشبع بتقديس العقل حيث هداه الله إلى فتح مبين فاستطاع أن يقدم ديننا الحنيف إلى المسلمين أو إلى أعدائهم وأسلوب محكمي البناء لا سبيل إلى التهافت فيهما وهو ما يعكسه ديوانه الفكري الموسوم بـ " كليات رسائل النور " خاصة. وإن المتمعن المتدبر في مضامينه يخلص إلى غاية مفادها أنها انطوت على فكر منهجي ذي خطاب منطقي علمي معاصر يخاطب العقل قبل الوجدان، ويسري في أوصال الإنسان سريان دم الحياة فيها. وهو وإن عاش في آخر القرن التاسع عشر وحوالي ثلثي القرن العشرين إلا أنه قد سبق عصره بحق إذا كان حريًا به – لو قدر الله ذلك – أن يحيى بين ظهرانينا لأنه وُجد لزماننا هذا قبل وجوده لزمانه ذلك. وليس يَعْزُب عن الذهن أنه كان يستلهم من الخالق الملهم أفكاره ومعارفه لأنه أطاعه مخلصًا فجزاه خير الجزاء، ولأن هجرته كانت نحو صراطه اللاحب فأوتي الطريقة المثلى، بيد أنه كان يأخذ بالأسباب حيث تعمق في طلب العلوم الإنسانية والإسلامية والفلسفات القديمة والعلوم الرياضية والطبيعية البحت والعلوم اللغوية من شعر وأدب وبلاغة ونحو، وأعجب بنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني[٣] التي نجد صداها يتردد في كتابه "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز". وكان واعيًا وعيًا عميقًا بالتحولات الكبرى التي شهدها عصره بل ومتوقعًا ما سيحدث – لاحقًا – من صراعات فكرية وتكنولوجية من شأنها تغييب البعد العقدي لدى الإنسان، وزعزعة إيمانه بالقيم الدينية السماوية، محاولاً خلال ذلك أن يقدم لنا الحلول الناجعة لهذه الصراعات انطلاقًا من الحقائق القرآنية المبنية على أصول المنطق والعقل وعلوم العصر ومعارفه[٤].

وتأسيسا على ذلك تعكس رسائله النَّيِّرة هاته ثقافة إنسانية متعددة الجوانب والمناحي تستقي من الشرق أصالته وروحه المشبعة بعالم الصوفية، وصفاء ذهنه، ورسوخ إيمانه بالمثل والقيم الدينية، وتَنْتَقِي من الغرب الجانب المشرق من فكره وعلمه القائم على تسخير العلم لأجل تيسير حياة الإنسان على هذه البسيطة وتذليل صعابها، وتوخّي المناهج العلمية الدقيقة سبيلاً للوصول إلى المعارف الحقة، أي تخليص الإنسان من رواسب الفكر الأسطوري القديم وجعله الوسيلة الأولى لتلقي العلم والمعرفة. إلا أنه رحمه الله كان واعيًا بأن هذا الفكر ليس كله خيرًا وصلاحًا، بل

(٣) يُراجع في هذا الشأن كتاب " كليات رسائل النور ٦" إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" تقديم الدكتور محسن عبد الحميد، ص٦.

(٤) يراجع تقديم الدكتور محسن عبد الحميد، المشار إليه سابقًا، ص٨.

إنه انطوى على أفكار فاسدة وأخرى متهافتة لا تَصْمُد أمام المنطق السليم، وكان من عقابيلها وشرورها ما يشهده عالمنا المعاصر من تناقضات وصراعات تُؤْذنُ بطمس معالم هذه المدنية الحديثة وهذا واضح في قوله رحمه الله: " يا أوروبا ! اعلمي جيدًا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنيّة المُضرّة السفيهة ثم تدّعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شُلّت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون "[٥] ومهما كان الأمر فإن رسائله هاته ضمّت بين جوانحها ثقافة إنسانية متعددة الجوانب والمناحي، وليس هذا بدْعًا في حقه رضي الله عنه لأنه تعهد نفسه – كما سلفت الإشارة – بأن يغرف من معين مختلف الثقافات شرقية أو غربية، وأدرك بوعي وتدبّر أننا لا نستطيع أن نولي ظهورنا لما هو غريب عن ثقافتنا الإسلامية، على أن مزية كون تركيا انفتحت في عصره على الغرب ساعده على بنائه الفكري هذا.

إن المنظور الفكري لعالمنا الفذ بديع الزمان النورسي يَتَغَيَّى ألا نستمد من المدنية الغربية إلا ما يطابق روح الدين، ومنظوره الخلقي الأمثل، ومعنى ذلك علينا أن ننخل منجزاتها بِمَنْخُل روح الإسلام لكون غالبيتها نبتت في المنبت السُّوء، حيث أن الأفكار – كما يرى – التي " نمت في مستنقع العطالة، وتنفست سموم الاستبداد، وانسحقت تحت وطأة الظلم، يُحدث فيها هذا الماء الآسنُ العفَنَ خلاف المقصود، فلا بد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة، وهذا الأمر تقع مسؤوليته على عاتق أهل المدرسة الشرعية "[٦]. ومعنى هذا أن مفكرنا بديع الزمان برغم معاداته لجوانب كثيرة من الفكر الديني والأخلاقي الغربي إلا أنه دعا المسلمين إلى أن يأخذوا عن الغربيين وسائل الفلاحة والتصنيع الميكانيكي والتكنولوجيا، وكذا عوامل الإنتاج شريطة توافقها مع رةوح الدين ومبادئه كما تم التنويه على هذا آنفًا، وفي ذلك يقول الأستاذ عبدالله الطنطاوي: " وكذلك موقفه من الجوانب العلمية من الحضارة الغربية، هو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام أن يتحرك لاكتشاف قوانين الحياة، والاستفادة منها. لإقامة الحضارة، وبناء التقدم، ولذلك دعا المسلمين إلى الأخذ بأسباب الحضارة الصناعية، وإلى تبنّي التكنولوجيا الحديثة وتبني العلوم الحديثة "[٧] لقد أخذ المسلمون قديمًا عن اليونان والفرس والهنود ولم يجدوا غضاضة في ذلك ما داموا قد هضموا كل ذلك همًا جيدًا فمثلهم كمثل النحل يَمتَصُّ الرحيق من مختلف أنواع الزهور

(٥) " كليات رسائل النور " ٣ " اللمعات " ص ١٧٧.
(٦) " كليات رسائل النور " ٨ " صيقل الإسلام " ص ٥٣٠.
(٧) عن كتابه " منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسي "، ص٧٩.

والنباتات ولكنه يُخرج من بطونه عسلاً مُصفًّى فيه شفاء للناس. وقد استمد الغرب منَّا مناهج البحث العلمي أيام عصورنا الزاهرة، فلا ضَيْرَ أن نستعير منه في حاضرنا بديلاً عنها ولسنا نخشى على أنفسنا لأن الإسلام حصين ذو منعة لا يستطيع أحد احتواءه، ومعنى هذا – كما يقول الدكتور أكرم ضياء العمري: " إن الإفادة من منهج البحث الغربي ينبغي أن تتم بعد إعادته إلى أصوله الإسلامية وتحكيمها فيه، وتقويم انحرافاته من خلالها ... أو بتعبير آخر لا بد لنا من العودة إلى منهج البحث الإسلامي الأصيل، وتطويره مستفيدين من منهج البحث الغربي فيما يندرج تحت قواعد الإسلام ومنهجه"[٨].

إن الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها وهذا ما يوجب عليه التماس المعارف المتنوعة والعلوم المختلفة ولو عن طريق غير المسلمين حتى يكون على بيّنه من أمره ويستجيب لأوامر الله وأوامر الرسول الكريم الداعية إلى طلب العلم والمعرفة من المهد إلى اللحد ومن الداني إلى القاصي حتى تزداد معرفته بعظمة الله ويصير متميزًا عن باقي المخلوقات بنور العقل الذي أتاه الله إياه فهو قبس من نوره وبه كرّمه أيما تكريم.

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وبذلك جاءت مضامين رسائل النور متنوعة أيما تنوع، تستقطب مختلف العلوم والمعارف والثقافات وتعكس حصيلة معرفية موسوعية هي نتاج حوالي ثمانين سنة أفناها عالمنا الفذ بديع الزمان في سبيل تحصيلها بإلهام رباني فأوتي بذلك الطريقة المثلى. ومن الآيات الدالة على ذلك كونه عنونها بعناوين دقيقة موحية معبرة بأجلى وضوح وبيان عن مقاصدها حيث وردت على النحو التالي:

الكلمات – المكتوبات – اللمعات – الشعاعات – إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز – المثنوي العربي النُّوري – الملاحق – صيقل الإسلام. إضافة إلى " عصا موسى " وسكة التصديق الغيبي[٩]. وقد بلغت رسائل النور أكثر من ثلاثين ومائة رسالة تم ترجمتها إلى لغات شرقية وأوربية متعددة[١٠]. ويرجع سبب تسميته إياها بهذا الاسم

---

(٨) عن كتاب " التراث والمعاصرة " ص ٦٨ سلسلة كتاب الأمة الذي تصدره دولة قطر، ط٢، ربعي الآخر عام ١٤٠٦.

(٩) يُراجع تقديم الدكتور محسن عبد الحميد لإشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، من ص: "ج" إلى "ح".

(١٠) تُراجع المقدمة التي وضعها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي لكتاب "كليات رسائل النور": سيرة ذاتية.

أنه كان محاطًا بأنوار متلألئة وقت تأليفه إياها: فهو من نُورس، واسم أمه نورية، وأبرز أساتذته وطلبته حملوا اسم نور، والنور هو أحد الأسماء الحسنى، ولشدة شوقه نحو القرآن وانحصار خدمته فيه فغن إمامه الخاص هو سيدنا عثمان ذو النورين رضي الله عنه[١١]. وقد واكبت تأليف هذه الرسائل حوادث جسام وظروف عَصيبَة تمثلت في انتشار المنظمات الإلحادية السرية التي كانت تسعى إلى محو الشعائر الإسلامية، واجتثاث جذورها من الأمة التركية التي حملت لواء الإسلام زهاء ستة قرون، ولتحقيق ذلك حاولت طمس معالم القرآن وبتر الصلة بينه وبين الأتراك، حيث نجحت في هذا المسعى إلى حد كبير. على أن معاناته الشديدة في السجون والمنافي والاغتراب وتعاقب الطقس من برد شديد وثلوج متراكمة وحرارة مفرطة، وتباين المواقع من جبال ووديان وسهوب شكلت صعابًا قاهرة أمام إنجازها إلا أن الله أعانه على تأليفها لتعم فائدتها المسلمين قاطبة. ومما قوّى عزيمته على تذليل هذه العراقل كونه كان آية من آيات الله في الصبر والمصابرة والمثابرة، وفي الشجاعة والإقدام، وفي الوعي والإخلاص والحركة، والتفاؤل والأمل الذي لم يفارقه لحظة من لحظات حياته، برغم ما أحيط به من ظلم وظُلام وظُلام، الرجل الذي أخذ نفسه بالعزائم في سائر أحواله فكان كالطود الصامد في وجه الأعاصير[١٢]. وتنبع أهمية رسائل النور من كونها تتحدث عن مواضيع متعددة مستوحاة من آي القرآن الكريم. دينية واجتماعية وأدبية وقانونية وتشريعية وفلسفية وتصوفية وفكرية محض وجد العلماء عُسْرًا في استكناه معانيها. بيد أن بديع الزمان – بتوفيق من الله – هُدِي إلى شرح عويصها ومشكلها، عارضًا إياه بأسلوب منطقي مقنع وطريقة جذّابة محببة للعقول قبل النفوس، وفي ذلك يقول الشاعر التركي الكبير علي علوي قوروجو: " لقد بحث الأستاذ النورسي في كليات " رسائل النور " عن أمهات الموضوعات من الدين والاجتماع والأدب والحقوق والفلسفة والتصوف، ووُفّق غاية التوفيق فيها، واللافت للنظر أنه خاض عباب المسائل المستعصية المعقدة التي وقع كثير من العلماء في تَيْه منها وتنكّبوا الصراط القويم في جلها فوضحها بكل يُسر وبشكل قاطع، ووصل إلى ساحل السلامة، وأوصل قراء رسائله إليها بسلوكه طريق أهل السنة والجماعة "[١٣]. وممّا

(١١) تُراجع المقدمة التي وضعها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي لكتاب "كليات رسائل النور": الملاحق في فقه الدعوة، ص٧١.

(١٢) عن كتاب " منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسي "ص ٧٩ لعبد الله الطنعاوي.

(١٣) عن " كتاب كليات رسائل النور " ٩ " سيرة ذاتية "، ص ٣٦٨ تقديم الأستاذ إحسان قاسم الصالحي.

يؤكد قيمتها العلمية والتاريخية أن أطروحات ورسائل ودراسات جامعية ودراسات متنوعة كثيرة أنجزت حولها إلا أنها غير كافية لأن تكشف لنا عن فكر هذا العلامة العميق الذي حاول تقديم القيم والمبادئ الإسلامية الخالدة إلى الغربيين، ومن تشبّع بثقافتهم من أبناء هذه الأمة بمنهج علمي رصين، وأسلوب أخّاذ، ودلائل منطقية وعلمية محسوسة ودقيقة أقرب ما تكون إلى الواقع المعيش.

ولئن قدّر الله تعالى في حقه أن يعيش أعزب محرومًا من أبناء صلبه فإنه عُوّض عنهم بآلاف الأتباع المخلِصين (والمخلصين) الذين كانوا بمثابة أبنائه البررة، كما أشاعوا ذكره في الآفاق بين الملايين من المعجبين والمنبهرين. ومن آيات ذلك أن المتأمل في سِيَر وحيوات هؤلاء المريدين والأتباع يستخلص أن هذه الرسائل هي المخلص للناس – وللمسلمين خاصة – من ظلمات الجهل والجهالة والتيه والاستعباد، وذلك لما انطوت عليه من قيم خلقية ودينية قويمة، وتحليل علمي ومنطقي يتسم بالدقة، ووضوح المنطلق والغاية، وفي ذلك يقول هو نفسه رحمه الله: "وقد ثبت بالتجربة أن أفضل منقذ من ظلم هذا العصر المريض الغادر المشؤوم، ومن ظلماته الدامسة، هو النور الذي تشعه رسائل النور بموازينها الدقيقة وموازناتها السديدة، يشهد على صدق هذا أربعون ألف شاهد بمعنى أن القريبين من دائرة رسائل النور إن لم يدخلوها فهناك احتمال قويّ لهلاكهم"(١٤).

والحق أن علمه نُور من الله تعالى قذفه في قلبه، أو كأنه شربه كما يُساغ الماء الزلال، إذ كانت تسنح له خواطر جمّة، وفكر عميق، وكانت بصيرته ترفده بعطاء سخيّ حتى قيل عنه: إن علمه كان لَدُنِيًا وليس كَسْبِيًا(١٥). نعم كان – على حد قول الأستاذ إحسان قاسم الصالحي "يستلهم من الآية الكريمة معانيها ويعيش حالات قلبية وروحية خالصة في أجزائها، ثم يُملي على مَنْ حوله من الطلبة – وبسرعة فائقة – ما يفتح الله عليه وما يرد على قلبه من المعاني الجليلة للآيات الكريمة، ولم يكن لتلك الفتوحات الربانية والسُّنُوحات القلبية من وقت معين ولا مكان معين، إذ فتح الله على قلبه "رسالة الحشر" وهو يغدو ويروح ذهابًا وإيابًا على ضفاف بحيرة بارْلا ويردد الآية الكريمة: {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (الروم: ٥٠) (١٦).

---

(١٤) عن كتابه " كليات رسائل النور " ٥ " الملاحق في فقه الدعوة "، ص١٤٦.

(١٥) عن كتابه " كليات رسائل النور " ١ " المعراج النبوي "، مقدمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، ص٧.

(١٦) ثم تراجع المقدمة التي وضعها لكتاب " الإيمان وتكامل الإنسان، لبديع الزمان النورسي، ص١٥.

إن قراء رسائل النور لا يزدادون إلا إيمانًا عميقًا بالله العظيم، وتهون أمامهم مصاعب الحياة وأعباؤها المادية لأنهم سيقتنعون أنها مجرد أشياء تافهة عابرة عن حياة الإنسان الذي سَيُثابُ على معاناته تلك ويلقى الله راضيًا عنه فيجزل له الأجر والثواب، وفي ذلك يقول: "إني أعتقد أنه ليس هناك على الكرة الأرضية – حاليًا – من يعاني من الضيق قلبًا وروحًا وفكرًا أقل من طلاب النور، لأن قلوبهم وأرواحهم وعقولهم لا تعاني الضيق بفضل أنوار الإيمان التحقيقي. أما المصاعب المادية والمشقات الدنيوية فهم يقابلونها بصدور ملؤها الشكر والصبر بما تعلموه من رسائل النور أنها عابرة تافهة، حاملة للثواب ووسيلة لانفتاح مجال عمل لخدمة الإيمان وتوسيعها[١٧]. ولكونها – أي هذه الرسائل – نابعة من الإعجاز المعنوي للقرآن الكريم وتدبّر معانيه، وتمثل صوره وأخيلته فإنها تقوي إيمان المسلم بمعتقداته وتؤدي – حسب قوله رضي الله عنه – "هذه المهمة، وفي هذا الوقت أتم أداء وتحظى في الوقت نفسه بكونها مَدَار انكشاف لمراتب غير محدودة للإيمان، ومصدر رقي في مدارجه السامية غير المتناهية"[١٨].

ومن مزايا هذه الرسائل استنادها إلى آي محكم التنزيل وتوسلها بأدلة منطقية وعلمية وعقلية تثبت مدى تهافت مبادئ الشيوعيين ومعتقدات الملحدين الذين يحاولون استمداد الحقائق المطلقة اعتمادًا على عالم الشهادة، في حين أنهم يُقْصُون من تفكيرهم عالم الغيب، وبذلك سَتُنِير – أي هذه الرسائل- حسب قوله رضي الله عنه: "أذهان الذين سقطوا في ظلمة هذه الفكرة الفاسدة وتنقذهم، وتقوم بإثبات وجود الله للماديين الذين لا يؤمنون إلا بما يشاهدونه بأعينهم بأدلة قوية يستحيل إنكارها أو الاعتراض عليها"[١٩].

إن مضامين رسائل النور تسعى إلى أن ترسخ في المتلقي رسالة فحواها أن جميع ما فيها من موازين وموازنات ومقارنات إنما هو – كما يقول رضي الله عنه – "لبيان ثمار سعادة الإيمان ونتائجها التي تعود للحياة الدنيا والحياة الأخرى، فتلك الثمار الكلية الضخمة كما أنها تُري في الدنيا سعادة الحياة وتذيق لذائذها خلال العمر، فإنها تخبر كذلك أن إيمان كل مؤمن سيكسبه في الآخرة سعادة أبدية، وتشير كذلك إلى أن هذه السعادة الدنيوية ستثمر وتتكشف وتنبسط بالصورة نفسها هناك"[٢٠].

---

(١٧) " كليات رسائل النور "، الشعاعات، ص٣٥١.

(١٨) نفسه، الملاحق، ص١١٨.

(١٩) نفسه، الشعاعات: ٤، ص٣٥١.

(٢٠) نفسه: الكلمة التاسعة والعشرون، الملائكة وبناء الروح والحياة الآخرة، ص ١٠٤-١٠٥. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار سوزلر Sozler للطباعة والنشر، مطبعة يني آسيا للطباعة، اسطانبول سنة ١٩٩١.

والحق أن المتمعن المتدبر في مضامين هذه الرسائل يستشف بجلاء أن كاتبها ذو ثقافة موسوعية متعددة المناحي والأبعاد وأن الله المبدع الملهم قد ألهمه خلالها بالفتح المبين والتجليات الروحانية، والمعارف الغزيرة التي تحاول المواءمة بين ما هو تقليدي أصيل وبين ما هو حداثي معاصر، بحيث يغدو هذا الأخير في خدمة الغايات السامية للأول، أي أن المناهج والمعارف العلمية الحديثة يُتوسل بها لخدمة الحقيقة التي تجعل شريعتنا السمحاء منها غايتها المثلى. ويمكن القول إن آيات هذا وذاك تتمثل فيما هو آت:

أ- دعوته إلى إنشاء جامعة إسلامية تدمج فيها الدراسة الدينية مع العلوم الكونية:

فقد شدّ الرحال عام ١٩٠٧ إلى استانبول وقدم مشروعًا إلى السلطان عبد الحميد الثاني لإنشاء جامعة إسلامية في شرقي الأناضول، أطلق عليها اسم "الزهراء – على غرار الأزهر الشريف- تنهض بمهمة نشر حقائق الإسلام وتدمج فيها الدراسة الدينية مع العلوم الكونية. ثم عرض المشروع – فيما بعد – على السلطان "رشاد فوعده خيرًا، وفعلاً خصص مبلغ مالي برسم ذلك وشُرع بوضع الحجر الأساس للجامعة على ضفاف بحيرة "وان" غير أن الحرب العالمية الأولى حالت دون إكماله[٢١].

ب -تعمقه في دراسة العلوم العقلية والحديثة وعلوم اللغة العربية:

لقد آمن عالمنا إيمانًا عميقًا بأن العلوم العقلية والحديثة وعلوم العربية ضرورية لكل مسلم ومسلمة، إذ أن منهج الإصلاح والتجديد يقتضي التوسل بها قصد إحداث الإقناع والتوضيح اللازمين سواء مع المسلمين أو مع غيرهم، ذلك أن الإسلام دين العلم والمعرفة وهذا ما دعاه إلى إكمال قراءة القرآن، ثم درس النحو والبلاغة والصرف، وأتقن الدراسة الأساس من العلوم النقلية والعقلية ولم يكتف بهذا القدر بل أحس بحاجته إلى العلوم الحديثة من خلال مناظراته مع أساتذتها فعكف على دراسة الرياضيات، والفلك، والكيمياء، والفيزياء والفلسفة الحديثة والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها[٢٢]، وفي ذلك يقول: "العلوم الدينية ضياء القلب، والعلوم الحديثة نور العقل

---

(٢١) من " كليات رسائل النور ": المعراج النبوي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص٦-٧، نشر دار سوزلر بمدينة نصر، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٧.

(٢٢) من تقديم الأستاذ إحسان قاسم الصالحي الذي وضعه لكليات رسائل النور: كلمات صغيرة في العبادة والعقيدة، لبديع الزمان النورسي، ص٨٢، نشر دار سوزلر للطباعة والنشر، استانبول، سنة ١٩٩٥.

وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذاك[٢٣]. ولذلك نجده برغم معاداته للغرب إلا أنه دعا إلى أن نأخذ عنهم علوم العصر ومناهج البحث العلمي بما هو موافق لروح الإسلام وغاياتها، ومعنى هذا ينبغي تصفية كل ذلك بمصفاة الشريعة، وهذا الأمر تقع مسؤوليته على عاتق أهل المدرسة الشرعية[٢٤].

وهذا ما جعله يؤمن إيمانًا راسخًا بأن تحصيل المعارف والعلوم المتنوعة يقوي إيماننا بالله عزّ وجلّ وينور أذهاننا قصد معرفة صفاته وأسمائه الحسنى وكماله المطلق فالمسلم العالم أفضل عند الله من نظيره الجاهل، ولولا العالم لبقي إيماننا به عزّ وجلّ إيمانًا محدودًا غامضًا تشوبه عدة شوائب وهذا واضح في قوله رحمه الله "إن كل علم من العلوم العديدة جدًا يدل على خلق الكون ذي الجلال – قياسًا على ما سبق – ويعرفه لنا سبحانه بأسمائه الحسنى، ويعلمه إيانا بصفاته الجليلة وكمالاته، وذلك بما يملك من مقاييس واسعة، ومرايا خاصة، وعيون حادة باصرة، ونظرات ذات عبرة "[٢٥]. وهو يرى أن هذا الكون بكل تفاصيله وجزئياته وحدة متجانسة تبرهن حقًا على وحدة الوجود ووحدة المعبود لكونه خاضعًا – كما يرى الأستاذ أديب إبراهيم الدبّاغ – لقانون: "إلا هي واحد هو قانون التعاون والتساند لا قانون الصراع والجدال كما يذهب إلى ذلك بعض فلاسفة هذا الزمان[٢٦].

والحق أن هذا الكون خاضع لنظام غاية في التنظيم والتنسيق بحيث أن لكل كائن حي أو جامد دورًا دقيقًا خلاله فكأنه بمثابة آلة معقدة تشتغل أجزاؤها بتناغم وتناسق تام فيما بينها كي تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل حتى إذا أصيب أي جزء منها بخلل تعطل عملها بأجمعها ويبقى الإنسان سيد المخلوقات في هذا الكون لما له من دور دقيق في العمل والتّسيير مهما كان واعيًا به أو غير ذلك لأن الله فضله على كثير منها تفضيلا[٢٧].

---

(٢٣) المعراج النبوي، ص٧ وصقيل الإسلام، ص٤٢٨.

(٢٤) " كليات رسائل النور " ٨ " صقيل الإسلام " ص ٥٣٠.

(٢٥) من كليات رسائل النور: مرشد الشباب للنجاة في يوم الحساب، ص٨٢، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار سوزلر بالقاهرة، مطبعة المدني بمصر، ط١، سنة ١٩٩٧.

(٢٦) عن كتابه " مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي "، ص١٥٠.

(٢٧) يُنظر في هذا الشأن " كليات رسائل النور " ٥ " إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص٢٢٣.

ج-توظيف أسلوب التمثيل والقص والحوار بقصد تشخيص المجردات وإيضاحها:

وقد عُني بديع الزمان النورسي بتشخيص المجردات قصد إيصال معانيها إلى أذهان المتلقين وذلك على عادة المناطقة وعلماء الكلام والتوحيد، وكذا سيرًا على نهج الدعاة المصلحين أمثال ابن تيمية وجمال الدين الأفغاني ومحمد إقبال والندوي ومحمد عبده وغيرهم كثير، وهو في ذلك يستند إلى الأمثال الحيّة أو المبتدعة المتصورة من بنات خياله وتفكيره، مما يعكس قدرة خارقة على التخييل والتصوير تأسيًّا في ذلك بمنهج القرآن والرسول ρ في ضرب الأمثال قصد تقرير المعاني الدقيقة والقيم المثلى في أذهان المخاطبين خاصة والمتلقين عامة. وإذا علمنا أن مخاطبيه المباشرين كانوا من تلامذته ومريديه أدركنا سر إلحاحه على ضرب الأمثال لكونها تهدف إلى تحقيق غاية تعليمية أساسًا، ومن نماذج ذلك قوله: "إذ ما ألف شخص عليم كتابًا معجزًا بحيث أن كل صحيفة منه تزخر بحقائق ما في مائة كتاب، كل سطر منه يحوي على معانٍ لطيفة لما في مائة صحيفة، كل كلمة منه تنطوي على حقائق ما في مائة سطر، كل حرف منه يعبر عن معاني ما بين مائة كلمة ... وكانت جميع معاني ذلك الكتاب وجميع حقائقه تشير إلى الكلمات المعنوية لذلك الكاتب البديع المعجز وتتوجه نحوها... فإذا كان الأمر هكذا، فلا ريب أن ذلك الكاتب المعجز لا يترك كتابه المعجز هذا دون فائدة، ولا يغلق أبواب هذه الخزينة التي لا تنفد، بل محال أن يدعها معطلة لا طائل وراءها... لذا سيعلم أفرادًا معينين معاني ذلك الكتاب لئلا يبقى ذلك الكتاب القيم مهملاً دون معنى... ولتظهر كمالاته المخفية، وتجد طريقها إلى الكمال، ويُشاهد جماله المعنوي ليُحَبَّ ويُحَبِّبَ صَاحِبَه، أي أنه سيعلم أحدًا مفردات ذلك الكتاب، بجميع معانيه وحقائقه، ملقنا إياه درسًا درسًا من أول صحيفة فيه إلى آخر صحيفة، حتى يمنحه الشهادة عليه.

وهكذا فالمصور الجميل سبحانه وتعالى الذي كتب هذه الكائنات إظهارًا لكمالاته، وإبرازًا لجماله وحقائق أسمائه المقدسة، كتبها كتابة بديعة، لا أبْدَع منها، إذ تدل جميع الموجودات – بما لا يُحد من الجهات – على أسمائه الحسنى وعلى صفاته الجليلة وعلى كمالاته المطلقة وتعبر عنها"[٢٨].

وقد جرت عادته على أن يمثل للحقائق الإسلامية، والمبادئ الخلقية بإيراد قصص أو حكايات خيالية يفترض فيها افتراضات ذهنية أو حسية صرفًا تقوده إلى ما يريد

(٢٨) من كليات رسائل النور: المعراج النبوي، ص٤٨-٤٩.

الوصول إليه وهو إقناع المتلقي بجدوى ما يدافع عنه، يتضح ذلك في قوله رحمه الله: "إن سبب إيرادي التشبيه والتمثيل بصورة حكايات في هذه الرسائل هو تقريب المعاني إلى الأذهان من ناحية، وإظهار مدى معقولية الحقائق الإسلامية ومدى تناسبها ورصانتها من ناحية أخرى، فمغزى الحكايات إنما هو الحقائق التي تنتهي إليها، والتي تدل عليها كتابة، فهي إذن ليست حكايات خيالية وإنما هي حقائق صادقة"(٢٩).

د- اعتماد منهج علمي متماسك في تقريب القيم والعقائد الإسلامية للمريدين خاصة وللمتلقين عامة:

وتتجلى أبرز معالمه وسماته فقيما هو آت:

١) قيام المنظور الخلقي الإسلامي لديه على نسج روابط الأخوة:

وذلك مصداقًا لقوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } (الحجرات: ١٠). وقول الرسول عليه السلام: " وكونوا عباد الله إخوانا "(٣٠) ومعنى هذا أن على المسلم أن ينسج روابط المحبة والأخوة بين المسلمين حتى تظل أمة الإسلام قوية عزيزة الجانب متماسكة بعضها مع بعض في السراء والضراء، وكذلك كان – رحمه الله – يحاول ترسيخ هذا المبدأ الخالد في نفوس أتباعه ومريديه حاثًا إياهم على وجوب التمسك به والعمل بأحكامه، حتى يكون بنو الإسلام خير أمة أخرجت للناس، وفي ذلك يقول: " إن الود والمحبة والأخوة هي من طباع الإسلام وروابطه. والذي يحمل في قلبه العداء، فهو أشبه ما يكون بطفل فاسد المزاج يروم البكاء بأدنى مبرر للبكاء، وقد يكون ما هو أصغر من جناح ذبابة كافيًا لدفعه إلى البكاء، أو هو أشبه ما يكون برجل متشائم لا يحسن الظن بشيء ما دام سوء الظن ممكنًا، فيحجب عشر حسنات للمرء بسيئة واحدة، ومن المعلوم أن هذا منافٍ كليًا للخلق الإسلامي القاضي بالإنصاف وحسن الظن"(٣١).

٢) وجوب المعرفة العميقة بحقيقة نبوة الرسول ρ :

فالرسول عليه السلام هو أفضل خلائق الله تعالى على الإطلاق، وما خلق الكون إلا من أجله، وهو أفضل من بلغ رسالته وصدر عن أوامره، ونواهيه، وجعلنا نعرف

---

(٢٩) نفسه: الكلمات، ص٨-٩.

(٣٠) من خطبة الرسول عليه السلام في حجة الوداع، يُنظر حولها " البيان والتبيين للجاحظ " ٣٢/٢، تحقيق وشرح حسن السَّنْدُوبي، نشر دار الفكر، بيروت (د.ت).

(٣١) من كليات رسائل النور: الإخلاص والأخوة، ص٩٨، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار سوزلر للطباعة والنشر، استانبول.

حقيقة التوحيد، وأدى رسالة القرآن الكريم بمنتهى الصدق والأمانة فهو بمثابة قبس من نوره الأكمل عزّ وجلّ، وهو الرحمة المهداة للعالمين: { لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (التوبة: ١٢٨). وفي ذلك يقول بديع الزمان: "وهكذا فالرسول الكريم ρ الذي هو أكمل فرد في مصنوعات الله، وأبرز شخصية في مخلوقاته... هو الذي يقدر ويعلن عن الصنعة الإلهية بذكر جذاب وتسبيح وتهليل... وهو الذي فتح بلسان القرآن خزائن جمال الأسماء الحسنى وكمالها... وهو الذي يبين بيانًا ساطعًا – بلسان القرآن – الآيات الكونية الدالة على كما صانعها... وهو الذي أدى وظيفة المرآة للربوبية الإلهية بعبوديته الكلية، حتى حظي بأتم تجليات الأسماء الحسنى كلها، بجامعية ماهيته"[٣٢]. والمعجزات المحمدية – حسب تحليله – تأتي لإقناع المنكرين، بيد أنها لا تكرههم على تصديق رسالته عليه السلام، ولا تعمل على تعطيل ملكة العقل لديهم، وإنما تحاول أن تلمح وترمز إلى أسرار الكون وقدرة الله عزّ وجلّ حاثة بني الإنسان على التمعن والتدبر، وعلى خرق كل ما هو مألوف بديهي، لأن العقل إذا نشط من عقاله، أدرك أسرار هذه المعجزات وآمن ببعثة صاحبها عليه أفضل الصلوات والتسليم، ولذلك نجده يقول: إن المعجزة تأتي لإثبات دعوى النبوة عن طريق إقناع المنكرين، وليس إرغامهم على الإيمان لذا يلزم إظهارها للذين سمعوا دعوى النبوة، بما يوصلهم إلى القناعة والاطمئنان إلى صدق النبوة، أما إظهارها في جميع الأماكن، أو إظهارها إظهارًا بديهيًا بحيث يضطر الناس إلى القبول والرضوخ فهو منافٍ لحكمة الله الحكيم ذي الجلال، ومخالف أيضًا لسر التكليف الإلهي، ذلك لأن سر التكليف الإلهي يقتضي فتح المجال أمام العقل دون سلب الاختيار منه... ولأجل هذا فقد وقعت المعجزة آنيا، وفي الليل، وحين تسود الغفلة، وغدا اختلاف المطالع والغمام وأمثالها حُجبًا أمام رؤية الناس لها فلم تدخل بطون كتب التاريخ"[٣٣].

٣) الدعوة إلى الإيمان بعالم الروح والملائكة:

بداهة يعد الإيمان بعالم الروح والملائكة أمرًا واجبًا على المؤمنين بعد عقيدة الإيمان بوجود بالله ووحدانيته، وقد يساور بعض ضعاف الإيمان قلق أو شك بشأن هذا المعتقد بل إن بعض المؤمنين بوجود الله يتمحلون أيما تمحل مسخرين قواهم

(٣٢) من كليات رسائل النور: المعراج النبوي، ص٨٢.
(٣٣) نفسه، ص٧٣-٧٤.

العقلية والمقاييس المنطقية فيتساءلون ما جدوى وجود الملائكة وعملهم في الكون إذا كان الله قادرًا على أن يفعل كل شيء بمجرد أمره له: كن فيكون ؟ وهذا ما جعل بديع الزمان يبين دورهم وصنيعهم فيه – أي الكون – موظفًا أسلوب التمثيل والحوار والتشخيص قصد إقناع أمثال هؤلاء – وغيرهم – بأن هناك ملائكة سخرهم الله لخدمة هذا الكون ليس عجزًا منه أو نقصًا قي حقه وإنما قصد إقناع بني الإنسان أن كل شيء مخلوق وفق نظام دقيق ولتبيان أن هذه المخلوقات لا تعصي الله ما أمرها وتفعل ما تؤمر به، وفي ذلك يقول: "كم تكون فكرة وجود الملائكة والروحانيات بكثرة – كما بيّنه القرآن الكريم – حقيقة وبداهة وأمرًا معقولاً، وكم يكون الرقص وعدم القبول خلافًا للحقيقة والحكمة، بل خرافة وضلالة وهذيانًا وبلاهة...

يتصادق اثنان أحدهما بدوي وآخر حضري، كانا يسيران معًا إلى مدينة عظيمة – كإستانبول- وقبل دخولهما المدينة وفي زاوية من زواياها يصادفان مبنى صغيرًا وورشة قذرة، فيبصران المبنى مملوءًا برجال مسلمين يعملون منهوكين في هذا المعمل الغريب، ويلاحظان حول المعمل حيوانات وأحياء أخرى أيضًا تقتات كل بطريقتها الخاصة حسب شرائط حياتها. فمنها ما يأكل النَّبات وأخرى تأكل الأسماك فقط، وهكذا ... وفيما هما يراقبان أحوال هؤلاء إذا بهما يريان على بُعد منهما آلافًا من العمارات المزينة والقصور العالية تفصل بينها ميادين وفُسَح واسعة، إلا أن سكان تلك العمارات الرائعة لا يَظْهَرُون لهما، إما لبعدهما عنهم، أو لضعف نظرهما، أو لاختفاء سكان تلك القصور أنفسهم، ولا توجد شرائط الحياة التي في هذه الورشة القذرة في تلك القصور العالية. فالبدوي الذي لم ير المدينة في حياته قال: إن تلك العمارات خالية من أهلها ولا أحد فيها من الأحياء، إذ أنني لا أراهم، وليس هناك ما يشير إلى الحياة –كحياتنا- أصلاً، فأظهَرَ بهذيانه هذا حماقته الشديدة.

أجابه صديقه العاقل الرزين:

يا هذا ! أما ترى أن هذا المسكن البسيط الحقير ملئ بالأحياء وليس هناك شبر من فراغ حولنا لم يملأ بالأحياء والعاملين، فهناك من يبدلهم ويجددهم دائمًا ويستخدمهم أبدًا.

فانظر الآن: هل من الممكن أن تكون تلك العمارات الرائعة المنتظمة والتزيينات الحكيمة، والقصور الباذخة – على بعدها عنّا – خالية من أهلها المتلائمين معها ؟ إنها لا بد قد بليت جميعًا بذي أرواح، لهم شرائط حياة أخرى خاصة بهم، فلربما يأكلون بدلاً من الأعشاب والأسماك شيئًا آخر، فإن عدم رؤيتهم – لبعدهم أو لِقصر النظر أو

اختفائهم – لا يقوم دليلاً أبدًا على عدم وجودهم، إذ أن عدم الرؤية لا يدل مطلقًا على عدم الوجود"[٣٤].

٤) بقاء الروح وفناء المادة:

وهذا موضوع طالما خاض فيه الفلاسفة والمفكرون. وخاصة فلاسفة الإسلام – أمثال الفارابي والغزالي وابن رشد وابن حزم، وقد أجمعوا كلهم على أن الروح لا تفنى بفناء الجسد بل تصعد إلى مستقرها في العالم الأعلى: الروح خالدة والمادة متلاشية، الروح حقيقة والمادة، سراب خادع، وكلما دقت المادة وخفت كلما صارت أقرب إلى الكائنات الأثيرية والروح قائمة بذاتها بينما المادة لا تقوم بنفسها بل هي محتاجة إلى الأولى، ومعنى هذا أن هناك حقائق غيبية –ومن ضمنها عالم الملائكة- لا نستطيع إدراكها وتصورها لأن عقولنا قاصرة عن هذا الإدراك نظرًا للطبيعة والخصائص التي رُكّبت بها، وهذا واضح في قوله رحمه الله: "لقد ثبت بالتجربة: أن المادة ليست أساسًا وأصلاً ليبقى الوجود مسخرًا من أجلها وتابعًا لها، بل هي قائمة بـ "معنى" وهذا المعنى هو الحياة، هو الروح.

وترينا المشاهدة والملاحظة كذلك أن المادة لا تكون مطاعة حتى يُرْجَع إليها كل شيء، وإنما هي وسيلة مطيعة خادمة لإكمال "حقيقة" معينة... هذه الحقيقة هي الحياة... وأساسها...هو الروح.

ومن البديهي أن المادة ليست هي الحاكمة حتى يُسْتَجْدَى على بابها وتُطلب أو تنتظر منها الكمالات والمثل، بل هي محكومة تسير وفق أساس معيّن وتتحرك بإشارته... هذا "الأساس" هو الحياة... هو الروح، هو الشعور.

وتقتضي الضرورة كذلك ألا ترتبط بالمادة الأعمال والمثل ولا تُبْنَى على ضوئها، إذ إنها ليست لُبًا ولا أصلاً ولا أساسًا ولا ثابتًا مستقرًا وإنما هي قشرة وغلاف وزَبَد وصورة مهيأة للتشقق والذوبان والتمزق.

إن المادة كلما صغرت ودقت ازداد انطباع ملامح الحياة وآثارها عليها، واشتد نور الروح فيها، أي أن المادة كلما دقت وابتعدت عن ماديتنا كأنها تقترب أكثر من عالم الروح، وعالم الحياة، وعالم الشعور، فيتجلى نور الحياة وحرارة الروح بشدة أكثر[٣٥]. ويقول في تعريف الروح تبعًا لهذا التصور السابق: "الروح قانون أمري، حيّ، شاعر،

---

(٣٤) من كليات رسائل النور: الملائكة وبناء الروح والحياة الأخرى، ص١٥-١٧.

(٣٥) نفسه، ص١٨-١٩.

نُوراني، وذات حقيقة جامعة، معدَّة لاكتساب الكلية والماهية الشاملة وقد ألبست وجودًا خارجيًا، إذ من المعلوم أن أضعف الأوامر القانونية يظهر عليها الثبات والبناء، لأنه إذا أمعنا النظر نرى بأن هناك "حقيقة ثابتة" في جميع الأنواع المعرَّضة للتغير، حيث تتدحرج ضمن التغيرات والتحولات وأطوار الحياة مُبَدلة صورًا وأشكالاً مختلفة، ولكنها تظل هي باقية حيّة ولا تموت أبدًا، لأن الفاطر الجليل قد خلق هذا الإنسان مرآة جامعة وشاملة، مع عبودية تامة وماهية راقية، فحقيقته الروحية في كل فرد لا تموت أبدًا – بإذن الله – وإن بدّلت مئات الآلاف من الصور، فتستمر روحه حيّة كما بدأت حيّة، لذا فإن الروح التي هي حقيقة شعور ذلك الشخص وعنصر حياته باقية دائمًا وأبدًا بإبقاء الله لها وبأمره وإذنه تبارك وتعالى"(٣٦).

٥) التدليل العقلي والمنطقي على وجود الله ووحدانيته:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

تتفق جميع الديانات السماوية – وحتى الوضعية- وأصحاب المذاهب الفلسفية العقلية على أن هذا الكون لا بد له من علّة وهي الله عزّ وجلّ، فهو العقل الأول، ويستحيل منطقيًا وعقليًا أن يكون معه شريك في الملك حتى لا يختل نظامه –أي الكون- { لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} (الأنبياء: ٢٢). مصداق قوله تعالى: { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } (المؤمنون: ٩١). إن الذي باين بين أشكال البشر وجعل لكل إنسان سمات وعلامات مميزة تميزه عن أي نظير له لا يمكن إلا أن يكون إلهًا واحدًا أحدًا فردًا صمدًا، ذا قدرة غير متناهية، وصاحب خلق وإبداع وصنعة لا حد لبديع صنعه، ولذلك نجد بديع الزمان يقول: "إن الذي وضع في وجه الإنسان ذلك الطابع المميز وتلك الآية الجليلة بتلك العلامات الفارقة، لا بد أن أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده، وضمن دائرة علمه حتى يضع ذلك الختم للتوحيد في تلك الوجه، بحيث إنه مع التشابه الظاهر بين الأعضاء الأساس – كالعيون والأنوف وغيرها من الأعضاء – لا تتشابه تشابها تامًا، بسب علامات فارقة في كل منها"(٣٧).

٦) الإنسان مخلوق لعبادة الله:

خلق الله تعالى الإنسان، في أحسن تقويم وأسجد له ملائكته وسخّر له الماء والتراب والهواء والنار لإعمال الأرض، ونظم كواكب النظام الشمسي خير تنظيم كي

(٣٦) نفسه، ص٤٦-٤٧.

(٣٧) من كليات رسائل النور: الاسم الأعظم، ص٥٢، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، منشورات دار سوزلر بالقاهرة، ١٠ شارع يوسف عبّاس، مدينة التوفيق مدينة نصر.

تناسب حياته على ظهرها، وأحاطه بحيوانات ونباتات وحشرات كي تساعده على شق طريقه في هذه الحياة الصعبة، ومعنى هذا أن محور هذه الحياة الدنيا هو الإنسان، فما الغاية من خلقه على هذه الشاكلة وبهذه المواصفات ؟ يجيبنا سبحانه وتعالى بقوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ } (الذاريات: ٥٦-٥٧). ولقد وُفق بديع الزمان في تبيين هذه الحقيقة خير تبيين مستعينًا في ذلك بالحجج العقلية والأدلة المنطقية مما يعكس حصيلة معرفية متنوعة ذات عمق وأصالة، وهذا واضح في قوله: "ثم إن فطرة الإنسان وما أودع فيه من أجهزة معنوية تدلان على أنه مخلوق للعبادة، لأن ما أودع فيه من قدرات وما يؤديه من عمل لحياته الدنيا لا تبلغه مرتبة أدنى عصفور – الذي يتمتع بالحياة أكثر منه وأفضل- بينما يكون الإنسان سلطان الكائنات وسيد المخلوقات من حيث حياته المعنوية والأخروية بما أودع الله فيه من علم به وافتقار إليه وقيام بعبادته"(٣٨). سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، والإنسان فقير إلى رحمة الله: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } (فاطر: ١٥). ولذلك فهو محكوم عليه أن يكدح إلى ربّه كدحًا وهذا هو المظهر الأمثل لعبادته سبحانه وتعالى، على أن إيمانه العميق به سبحانه وتعالى يجعله واثقًا به لا يهاب أي مخلوق، يسير في درب الحياة الشائك معتمدًا عليه، يأبى أن يتذلل لغيره ولا يخشى فيه لومة لائم، ويتحلى بقوة الشخصية والإرادة، وبهذا السلوك الأقوم تنحل جميع مشاكله، وتنفرج جميع كُربه ويتجنب بذلك مَنَّ الناس عليه لأن الله هو المعطي وهو المانع. وهذا واضح في قوله: " اتخاذ المعبود الأوحد يجعلك متحررًا من قيود البشر ومَنِّهم ... إن الله واحد أحد، فلا تتعب نفسك – أيها الإنسان – بمراجعة الأغيار. ولا تتذلل لهم، فترزح تحت مِنَّتِهم وأذاهم ... ولا تَحْن رأسك أمامهم وتتملق لهم ... ولا ترهق نفسك فتلهث وراءهم ... ولا تخف منهم وترتعد إزاءهم ... لأن سلطان الكون واحد، وعنده مفاتيح كل شيء بيده مقود كل شيء، تنحل عقد كل شيء بأمره، وتنفره كل شدة بإذنه ... فإن وجدته فقد ملكت كل شيء، وفزت بما تطلبه، ونجوت من أثقال المَنّ والأذى ومن أسر الخوف والوهم"(٣٩).

والواقع أن بديع الزمان صاحب نظر ثاقب وفكر سديد وما ذلك إلا لأن الخالق المبدع آتاه هذه الموهبة الفذة لأنه أخلص في طاعته ومحبته، وأفنى حياته في محاولة

---

(٣٨) من كليات رسائل النور: كلمات صغيرة في العبادة والعقيدة، ص٢٤، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار سوزلر، استانبول، سنة ١٩٩٥.

(٣٩) من كليات رسائل النور، الاسم الأعظم، ص٤١-٤٢.

فهم تعاليمه وتجلياته فأسبغ عليه من نور علمه ومعرفته. وإذا علمنا أنه عكف منذ حداثة سنة على تعلم المنطق والفلسفة أو ما يصطلح عليه بعلوم الأقدمين أدركنا سر لهجه بالتفكير المنطقي والنظر الفلسفي اللذين كان يتوخى من خلالهما تيسير المناهج وتبسيط الأفكار المعقدة وخاصة حين محاولته الدفاع عن رسالة الدين وإقناع الأصفياء قبل الأعداء بحقائقه السرمدية. فمن نماذج ذلك أنه نعَى على الملحدين تفكيرهم المتهافت ذلك أنهم أثبتوا وجود الكون بيد أنهم أنكروا خالقه وهذا لا يصح قطعًا إذ لا بد لكل موجود من خالق، وفي ذلك يقول: " إن السوفسطائيين الذين يعدون حمقى لإنكارهم وجود الكون، هم أعقل أهل الكفر، لأن الاعتقاد بوجود الكون ومن بعده إنكار خالقه – وهو الله سبحانه- غير ممكن قطعًا، ولا يُقبل أصلاً، لذا بدأوا بإنكار الكون وأنكروا وجودهم أيضًا، وقالوا لا شيء موجود على الإطلاق فأبطلوا عقولهم، وأنقذوا أنفسهم باقترابهم شيئًا إلى العقل من متاهة الحماقة المتناهية للمنكرين الجاحدين الحمقى المتسترين تحت ستار العقل"[٤٠]. وهو يرى أن لا أحد يملك الحقيقة المطلقة إذ إن ما أراه حقًا يراه غيري باطلاً، وليس منهجي بقادر على أن يغيّب باقي المناهج ولا يعترف بقيمتها وعندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول: " إن مسلكي حق أو هو أفضل ولكن لا يجوز لك أن تقول: "الحق هو مسلكي أنا فحسب"، لأن نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكون محكمًا ولا حكمًا يقضي على بطلان المسالك الأخرى، وقديمًا قال الشاعر[٤١] (من الطويل):

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تُبدي المساويا

وإن التفكير المنطقي السليم لديه يوصل إلى الإيمان بحدوث يوم القيامة ذلك أن التحولات الكبرى في حياة الإنسان، وفي هذه الأرض من تعاقب فصول السنة ووجود مشرق ومغرب ونوم ويقظة، وثنائيات في هذا الكون يشعرنا بانتهاء الحياة عليه وبعث حياة أخرى هي أكمل وأمثل حيث تختفي فيها هذه الأضداد والمتناقضات. لأن الليل لا بد أن يعقبه فجر جديد، وهذا واضح في قوله: "إن التبدلات والتحولات التي تحدث في كثير من الأنواع حتى في الليل والنهار، وفي الشتاء والربيع، وفي الهواء،

---

(٤٠) نفسه والصفحتان نفساهما.

(٤١) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو منسوب للإمام الشافعي أيضًا، يُنظر حوله: ديوان الشافعي، ص٩١، طبعة دار النور، بيروت، أما النص المستشهد به فهو مأخوذ من كتاب بديع الزمان: كليات رسائل النور: الإخلاص والأخوة ص٧١-٧٢، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، نشر دار سوزلر للطباعة والنشر، استانبول، سنة ١٩٩١، مطبعة يني آسيا.

وحتى في جسد الإنسان خلال حياته، والنوم الذي هو آخر الموت تشابه الحشر والنشر، وهي نوع من القيامة لكل منها، وتشعر بحدوث القيامة الكبرى وتخبر عنها رمزًا، فمثلما ساعاتنا تَعُد اليوم والساعة والدقيقة والثانية بحركة تُرُوسِها فتخبر عقاربها بحركتها عن كل واحدة منها، وبالتي تليها – أي أن كل واحدة منها مقدمة للتي يليها – كذلك هذه الدنيا فهي كساعة إلهية عظيمة، تعمل بدورانها وتعاقبها على عدّ الأيام والسنين فتخبر كل منها عن التي تليها وهي مقدمة لها. فكما أنها تحدث الصبح بعد الليل، والربيع بعد الشتاء، كذلك تخبرنا رمزًا عن حدوث صبح القيامة بعد الموت وصدورها من تلك الساعة العظمى[٤٢].

٧) معرفته بالعلوم البحتة:

وليس هذا بدعًا في حقّه رضي الله عنه لأنه طلب هذه العلوم منذ أن فتى، وكان واعيًا كال الوعي بضرورة تحصيلها لأنها نور العقل، وقد أطلق القدماء عليها مصطلح "العلوم النافعة" والواقع أن تركيا العثمانية انفتحت على هذه العلوم منذ القرن التاسع عشر وأسست المعاهد والمدارس المختصة بذلك بيد أن التكالب الاستعماري عليها، ومحاولة الغرب محاصرتها من كل جانب لم يدعا المجال لها كي تؤتى ثمارها المرجوة إلا بعد حين. وإنا لدارس لرسائل النور يحسب أن صاحبنا علام من علماء الطبيعة أو الطب أو الفلك وذلك لما تشعه من إشعاعات علمية محض، بل ومن معلومات دقيقة تعكس مدى سعة إطلاعه عليها، من ذلك قوله على سبيل المثال "إن الميكروب مثلاً كالكركدن يحمل الماهية الحيوانية وميزاتها، والسمك الصغير جدًا يملك تلك الميزة والماهية المجردة كالحوت الضخم، لأن الماهية المجردة من الشكل والتجسم تدخل في جميع جزئيات الجسم من أصغر الصغير إلى أكبر الكبير وتتوجه إليها دون تناقص ودون تجزؤ، فخواصّ التشخصات والصفات الظاهرية للجسم لا تشوش ولا تتداخل مع الماهية الخاصة المجردة، ولا تغير نظرة تلك الخاصة المجردة"[٤٣].

٨) معرفته بعلمي الرياضيات والفيزياء:

إن المتمعن المتدبر في مدوّنه الضخم "كليات رسائل النور" يراه حافلاً بإيراد قوانين رياضية وأخرى فيزيائية حيث إنه إذا أراد التمثيل لمعتقد من المعتقدات الدينية

(٤٢) من كليات رسائل النور: الملائكة وبقاء الروح والحياة الأخرى، ص٥٣-٥٤.
(٤٣) نفسه، ص٧٧.

وظف أسلوب الإقناع الرياضي أو الفيزيائي لأنه كان يعي جيدًا أن مخاطبيه هم من الشباب الواعي المتعلم بعلوم العصر وأن الإقناع الأمثل هو ما تم عن طريق الإتيان بأدلة وبراهين رياضية فيزيائية حتى تبلغ رسالته العقل قبل القلب ويُبْهَت الذي كفر، ومن نماذج ذلك قوله في معرض الحديث عن المعراج النبوي وكونه واقعًا لا محالة: " لنفترض وجود ساعة لقياس سرعة حركات الإنسان والطلقة والصوت والضوء والكهرباء والروح والخيال، وفي هذه الساعة عقارب، عقرب يعد الساعات، وآخر يعد الدقائق في دائرة أوسع من الأولى ستين مرة، وعقرب آخر يعد الثواني في دائرة أوسع من هذه ستين مرة، وآخر يعد الثوالث في دائرة أوسع من هذه ستين مرة، وهكذا عقارب الروابع والخوامس والسوادس والسوابع والثوامن والتواسع والعواشر، أي تكون للساعة عقارب عجيبة فكل منها يدور في دائرة أوسع من التي قبلها بستين ضعفًا.

فلو كانت دائرة العقرب العادّ للساعات بقدر ساعاتنا اليدوية الصغيرة، فيلزم أن تكون دائرة العقرب العاد للعواشر بمقدار المدار السنوي للأرض أو أكبر منه ... وهكذا فلأن الزمان عبارة عن لون من ألوان الحركة وصيغتها أو شريط لها، فالحكم الجاري في الحركات جار في الزمان..."(٤٤).

٩) إحاطته بعلمي الفلك والجغرافية:

لقد عُني بديع الزمان رحمه الله بعلوم هيآت الأرض وأقاليمها ودرجات الطول والعرض، وحركات الكواكب والنجوم والأفلاك، ودوران الأرض والقمر وذلك لأن الدعاة محتاجون إلى معرفة هذه العلوم حتى يستدلوا من خلالها على آي الله ومعجزاته، وبديع مخلوقاته، فيجدوا الأذان الصاغية والعقول الواعية، ثم لأنه كان – بطبعه – ميالاً إلى مثل هذه المعارف التي هي غذاء العقل وجلاء صدأ الأذهان، خاصة وأنها ترسخ إيمان المؤمنين بالمعتقدات الدينية المثلى وتزيح سُجُف الظلام والجهل وتمحق كل شك أو قلق وجودي حول كينونة الله تعالى ووحدانيته، ومن نماذج ذلك إشادته بأرضنا التي أخضعها الله لقانون الجاذبية ... الدوران حول نفسها وحول الشمس مما يجعل الأشياء لا تسقط منها إلى الفضاء، وهذا دليل على أن العظيم مهّدها لنا خير تمهيد حتى نعبده حق عبادته، وفي ذلك يقول: "تأمل في الأرض – وهي إحدى الكواكب السيارة- هذه السفينة الجارية السابحة في الفضاء التي تجول في

(٤٤) من كليات رسائل النور: المعراج النبوي، ص٤١-٤٢.

سنة واحدة، مسافة يقدر طولها بأربعة وعشرين ألف سنة، ومع هذه السرعة المذهلة لا تبعثر المواد المنسقة على سطحها ولا تضطرب بها ولا تطلقها إلى الفضاء ... فلو زيد شيء قليل في سرعتها أو أُنْقِص منها لكانت تقذف بقاطنيها إلى الفضاء ..."[٤٥]. كما يقول لنا في موضع آخر: " إن الله سبحانه قريب إلينا غاية القرب، ونحن بعيدون عنه غاية البعد. مثال: إن الشمس قريبة منّا بوساطة المرآة التي في أيدينا، بل كل ما هو شفاف يكون نوعًا من عرش للشمس ومنزل لها. فلو أن للشمس شعورًا، لكانت تحاورنا بما في أيدينا من المرآة، ولكننا بعيدون عنها أربعة آلاف سنة، وهكذا فشمس الأزل (بلا تشبيه ولا تمثيل) (ولله المثل الأعلى) أقرب إلى كل شيء من أي شيء كان، لأنه واجب الوجود، ومنزّه عن المكان، ولا يحجبه شيء بينما كل شيء بعيد عنه بعدًا مطلقًا"[٤٦].

معرفته بخبايا الواقع والنفس البشرية:

تقول المقولة المتداولة: الإنسان عدو ما يجهل، فمن البديهي أنه يبغض كل ما لم يستطع الحصول عليه، ويرى المستحسن مستهجنا إذا تأبّى عليه ولم يتمنّع على غيره، ويغدو همه تتبع هناته وتسقط عيوبه عملاً يقول الشاعر: "ولكن عين السخط تبدي المساويا" وهذا واضح في قوله: " فكما أن الإنسان يعادي ما يجهله، فإنه يتحرى النقص والقصور فيما تقصر يده عنه، ويعجز عن الاحتفاظ به ومسكه... بل تراه يتحرى فيه عن القصور بشيء من عداء وحقد يضمره، بل يتخذ ما يشبه العداء له"[٤٧].وجماع القول إن البناء الفكري والروحي لدى مفكرنا بديع الزمان النورسي أكبر من أن يحيط به وصف شامل أو تحليل مستقصٍ، بل الأمر مُحتاج إلى تكاثف جهود الباحثين المختصين (والمخلصين) حتى نستطيع سبر أغواره، والتغلغل في أعماقه بغية تمثل أفكاره، ومعرفة مدى تأثيرها في بني الإسلام على تعاقب الدهور والأعصار ... وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب....

(٤٥) نفسه: الاسم الأعظم، ص٢٦.
(٤٦) نفسه: المعراج النبوي، ص٨٥.
(٤٧) نفسه: الاسم الأعظم، ص١٣٩.